كلمة قداسة سيدنا البطريرك

مار إغناطيوس أفرام الثاني

بطريرك أنطاكية وسائر المشرق والرئيس الأعلى للكنيسة السريانية الأرثوذكسية في العالم

في افتتاح المؤتمر الأوّل حول "التراث المسيحي المشترك في الوادي المقدّس"

بيت الذاكرة والإعلام – حديقة البطاركة، الديمان – لبنان – ١٨ أيلول ٢٠١٩

أصحاب الغبطة والنيافة والسيادة والسعادة

الكهنة والرهبان الأعزاء

أيّها الحضور الكرام،

ليس عند الله صدفة؛ فبتدبيره الفائق وصفه، يقع اليوم عيد مار متّى الناسك الذي عاش في العراق وتلمذ نسّاكًا كثيرين وهذّب مسيرتهم في طريق الكمال... وأيضًا عيد مار يعقوب الحبيس الذي أسّس ديره قرب سعرت في أعالي ما بين النهرين حيث جدّ في حياة الزهد وبلغ من الروحانيّة ما بلغ. واليوم، نجتمع معًا لافتتاح المؤتمر الأوّل حول التراث المسيحي المشترك في الوادي المقدّس، أيّ لنسمع عن النسّاك والرهبان الذين تدرّجوا في مسالك الروح هنا في هذه البقعة المباركة من بلاد القداسة والقديسين.

في زمن تصارعت فيه كنائسنا حول أمور لاهوتية فلسفيّة متعلّقة بكُنه اللاهوت وطبيعة السيّد المسيح ومشيئته، فتبادلت الحرومات وقطعت العلاقات، نرى هنا في هذا الوادي المقدّس رهبانًا نسّاكًا قدّيسين يواصلون نهارهم بليلهم في الركوع والخشوع والتسبيح. نسمع "ܡܒܪܟ ܐܢܬ ܐܒܐ" من هنا، و"ܐܝܟ ܕܐܡܬ ܪܚܡ" من هناك، دون أن يعكّروا صفاء أذهانهم الروحية بخلقيدونيا أو غيرها.

وهكذا قدّموا لنا أنموذجًا نحن بأمسّ الحاجة إليه في يومنا هذا، وشرقُنا المعذّب مضطرب ووجودنا المسيحي مهدّد وأبناء الكنيسة هائمون على وجوههم يبحثون عن بلد يستقبلهم. نعم، كان رهباننا القدّيسون في كنائسنا السريانية الأرثوذكسيّة والمارونية متّحدين بالنسك والتعبّد، ونحن حتّى اليوم ما زلنا متباعدين بسبب العقيدة والتاريخ وكأنّ بحثنا الفلسفي حول طبيعة المسيح أهمّ من وحدتنا به – تقدّس اسمه.

وإذا فكّرنا بكيفية التقارب، علينا النظر إلى ماضينا لنتعلّم منه لعلّنا نفهم كيف وصلنا إلى يومنا هذا، فنحيد عن الأخطاء التي ارتكبناها في مسيرتنا ونؤكّد على ما يجمعنا.

يجمعنا طبعًا تراثٌ سريانيّ مشترك، فيه قدّيسون لطالما أفاضت النعمة الإلهية من خلالهم علينا بركاتٍ دامت إلى يومنا.

ننظر فنرى هنا الواديَ المقدّس ينادينا حيث لا زالت أصداء الصلوات المرتفعة باللغة السريانية تنتقل من هذا السفح إلى ذاك، محلّقةً إلى السماء تناجي الله وتخاطبه، بتمجيد وتسبيح يشبه تسبيح الملائكة.

نكاد نرى عند كلّ صخرة قدّيسًا راكعًا يصلّي... إنّه وادي قاديشا، أي الوادي المقدّس، أو وادي قنّوبين (cenobion)، أي الحياة الرهبانية المشتركة، وهو أيضًا معروف بتسمية "وادي قزحيّا" لعلّها مشتقّة من السريانيّة "ܩܙܐ ܡܢܐ" أي كنز الحياة، وأيّما كنز تجده هنا...

نكاد نسمع صوت الشاب نوح الذي أبصر النور في ضيعة بقوفا من جرود إهدن في منتصف القرن الخامس عشر (١٤٥١)، وتشبّع برائحة القداسة الفائحة من قاديشا، وانطلق من هذا الوادي المقدّس حاملًا روحانيّته السريانية المارونية ليصبح في ما بعد مطرانًا

لحمص، وثمّ مفريانًا للمشرق، فبطريركًا سريانيًّا أرثوذكسيًّا معروفًا باسم البطريرك نوح اللبناني المتوفّي في حماة في بداية القرن السادس عشر (١٥٠٩+).

نكاد نتنشّق من هواء هذا الوادي النظيف بقايا رائحة البخور التي عطّرها النسّاك الذين زهدوا عن الدنيا وتركوا العالم غير ملتفتين إلى الوراء، بل مثبّتين نظرهم وشاخصين نحو الصليب الذي تراه معتليًا القمم، يذكّر المارّين بأنّ هذا الوادي مكرّسٌ لله.

نستطيع أن نبحث عن التراث المشترك لإغناء حاضرنا الروحيّ بما علّمه آباء قدّيسون في هذا الوادي، حين هيّأوا أجيالاً تحمل الأبوّة الروحيّة لأجيال قادمة دون انقطاع.

كما نتطلّع إلى اليوم الذي نرى فيها رهبانًا سريانًا أرثوذكسيّين وموارنة جنبًا إلى جنب يعيدون الحياة الرهبانيّة النسكيّة إلى هذا الوادي، يرفعون الصلوات فنسمع من جديد "ܟܪܝܡܢ ܠܟ ܐܠܗܐ ܘܥܢܢ" تصعد من هذه الأديرة ويتردّد صداها من سفح إلى آخر شاقّة طريقها إلى السماء.

نتمنّى لهذا المؤتمر النجاح والتوفيق في هذه المهمّة، آملين أن ننجح معًا في تعزيز التراث المشترك لمستقبل مسيحيّ يرضي الله وينتج قدّيسين جدد ينطلقون من هذا الوادي إلى أقاصي الأرض.